القسم الأول

أوليـــات

سلخ هذا الطفل الريفى من عمره أحد عشر ربيعا لا يجاوز حدود قريته إلى بلد أو مدينة أو مصر ، فلا غرو أن تستوعب مشاهداته فى هذه الدنيا الجديدة كل مشاعره ، وتستولى على جميع حواسه ؛ سيركب القطار لأول مرة فى حياته ، ولم يكن يعرف منه إلا صور اللعب التى كان يحضرها رواد الموالد لأطفالهم ، وسيهبط طنطا ولا عهد له بالشوارع التى تموج بالعالم موجا ، وسيدخل الجامع الأحمدى وهو أكبر من مسجد القرية بخمسين مرة على الأقل ، وسينام فى حجرة ليس فيها أبواه ، وسيحضر مجتمعات يكون فيها مثل لب البطيخة فى شطبها وسيقطع طرقا لم يرها فى منامه . فكل شىء عنده جديد ، فى الطريق والقطار ، والشارع والجامع ، وفى المنزل الذى سيحل به وفى طريقه إلى القرية آخر العالة ، وغير ذلك مما وقع تحت نظره ، وارتسم فى مخيلته ؛ لذلك يصفه بالدقة التى طبع عليها فى حافظته ، ولا ينسى أولياته مما رأى ، مهما تطاولت السنون وتباعدت الأيام .

إلى طنطا

أزف الرحيل ، وتم الاستعداد ، وأصبح الصباح ، فدُعى « محمد » إلى الاستحمام ولبس الملابس الجديدة ، وليس يذكر كيف أو بماذا أفطر ، إلا أنه ، جريا على عادة الريفيين ، لا بد أن كان الخبز « الفطير » أساس وجبة الصباح قبيل السفر ليحمل والده معه إلى طنطا عددا منه لأهل البيت الذى سينزلون به .

خرجوا إلى دنياه الجديدة ، التى تبتدىء من محطة بركة السبع وهى قرية يذكر أنه أتى إليها مرة ، مع رواحل فى انتظار جهاز قريبة له قادم من طنطا ، ولكنه لم ير المحطة ولا الطريق ، ولم يبصر القطار ولا تذكرة السفر . يالفرح هذا الطفل ! لقد امتطى القطار فى آخر عربة منه ، وأخذ يطل من باب العربة ، ليشاهد امتداد الشريط الحديدى خلفه وأثر الشتاء فوقه ، وظل كذلك نحو نصف الساعة ، حتى وصل القطار إلى طنطا قبيل الظهر بساعة ونصف الساعة . هبط مدينة طنطا وولى وجهه شطر الجامع مع والده ، فراعه شوارع مزدحمة ، وأخذ بلبه تلك الحوانيت المتراصة على جانبيها ، والسلع المتكدسة فيها ، والبضائع المرتبة أمامها ، أو المعلقة على مداخلها . وقد استرعى نظره

خاصة ، عجلات اليد وفوقها الفول الأخضر ، ينادى عليه الباعة بأصواتهم العالية . ونداؤهم المأثور « ياحراتى يافول ياماسئ عسل وصابح ياحراتى » . وهو غير النداء الذى ألفه من باعة القرية ، والفول ليس مما يباع فيها .

يذكر لك هذا بعد اثنتين أو ثلاث وأربعين سنة ، كما يستدعيك لتذكر أو تتذاكر معه وقت هذه الرحلة بالضبط أو بالتقريب . يرى أن الوقت كان شتاء لما رأى من بقايا المطر خلف القطار ، ولوجود الفول الأخضر فى ذلك الوقت . وإذا علمت أن ابتداء السنة الدراسية بالجامع كان فى شوال دائما ، وأن شوال سنة ١٣١٦هـ كان موافقا لشهر فبراير سنة ١٨٩٩م أدركت معه وقت هذه الرحلة فاحفظه .

وإذا قدر لك أن تزور طنطا الآن (سنة ١٩٤٢م) وتشاهد شوارعها الواسعة النظيفة المرصوفة ، ثم تشاهد الأبنية الفخمة على جوانبها ، والقصور الشاهقة فى ضواحيها ، وتمر بها ليلا (فيما عدا وقت الحرب) فترى المصابيح الكهربائية تتلألأ فى شوارعها والثريات فى ميادينها — تعجب حقا من قول المرحوم على مبارك باشا فى خططه ج ١٣ فى وصفها « عديمة الانتظام ، ضيقة الحارات ، غير محكمة البناء ، فكانت كثيرة العفونات والرطوبات ، لعدم تخلل الهواء والشمس ؛ ولذلك

كانت تكثر بها الأمراض والوخم ، بعد فراغ الموالد وفى أثنائها ، اهـ

ولكن لا عجب ! فنصف قرن يسمح ليد الإصلاح بتغيير المدينة وتحسين تخطيطها . نعم ، إنها كانت كما وصفها على مبارك باشا ، إذ لم يكن بها فى سنة ١٩٠٠ شارع مرصوف بالحجارة إلا شارع المديرية الممتد الى شارع « البورصة » ، وكانت الأوحال تتراكم فيها مدة طويلة غب المطر ، حتى قلت فى ذلك سنه ١٩٠٨

ماجت بحار الوحل فى طنطا إلى
أن فاقت المسك العبير الأذفرا

وأردت بوجه الشبه سواد اللون فقط .

أما شوارعها الواسعة فكانت لا تزيد على أصابع اليد ، كما كانت الأبنية الفخمة المعروفة معدودة ، مثل « سراية الرباط » ومدرسة « الفرير » ومدرسة الراهبات التى كانت تعرف « بالسبع بنات » على ترعة الجعفرية (فى الجزء الشمالى الذى تم ردمه الآن) ، عدا عدة بيوت أنيقة صغيرة ، كانت تشرف على الترعة أيضا قبيل قنطرة سمنود .

وقد تطورت الإضاءة فيها من مصابيح « البترول » الضئيلة النور الى مصابيح « البنزين » المحدودة الإضاءة ثم الى المصابيح الكهربائية المذبذبة ، فإلى هذه المصابيح الفخمة فى الشوارع الكبيرة الآن .

وقد عنى المجلس البلدى بتغيير الماء الذى تستقى منه المدينة ، فصار ماء نهريا عذبا ، بعد أن كان « معينا » ، وعمت الحنفيات العمومية أرجاء المدينة ، بعد أن كانت شوارعها وحاراتها غاصة بالسقائين الذين يجلبون الماء العكر من الترعة الجعفرية ، ويتردد فى أكثر الطرقات نداؤهم المعروف « يعوض الله ! »

وقد زالت الرطوبات والعفونات من حواريها وشوارعها ، لرصف كثير منها ، ولوجود مسارب « المجارى » فى أنحائها .

والفضل فيما اختط فيها من الشوارع الكثيرة الواسعة للمرحوم محمد محب باشا ، ومن تلاه من المديرين ، الذين أخذوا فى توسيع المدينة وإصلاح شوارعها ، وإنشاء المتنزهات والمبانى العامة فيها . وفى مدة المرحوم العزبى باشا تم تحويل مجرى الترعة الجعفرية ، وردم الجزء المنحنى منها .

فى الجامع

قطع طريقه مع والده من المحطة إلى الجامع ، وما أن وصلا إلى باب السكة الجديدة ، حتى كانت لهما وقفة هناك ، أو معركة حول دخول الجامع .

١ — هم الوالد بخلع نعليه . ولكنه هو كان غير منتعل ، لأنه خلف نعله القديم أو « الصريمة » فى القرية ، وسيشترى له والده نعلاً جديداً مناسباً من طنطا .

وكيف يدخل المسجد وقد قطع شارع السكة الجديدة مشياً على الأقدام حافياً غير منتعل ؟ وهذا البواب بمقرعته ، يقرع بها يده تارة وحائط المسجد أو كتف من أمامه أخرى ، ينبه الداخل والخارج إلى سرعة الانتعال أو خلع النعلين ، وهو يفتش عن الداخلين ليمنع الحفاة من أن تطأ أقدامهم أرض الجامع الطاهرة! نبه البواب الوالد بعبارة مؤدبة « لف من باب الميضأة » فأجابه « رجلاه نظيفتان » فقال « أين مداسه ؟ هو حاف ». وبعد نقاش هادىء عدل الوالد عن تمسكه بأن يدخل من هذا الباب مع ابنه الحافى بدون غسل رجليه ، وكان له مع هذا الابن درس خلق واجتماعى فى الاعتراف بخطئه وأنه ما كان ينبغى له وهو فى أول

الطريق أن يستعمل التلفيق ، أو يحاول الخروج عن الصراط السوى فى حياة ابنه الجديدة ، فى طلب العلم ، فيخدع البواب بدخوله معه حافيا بدون حق !

٢ — سرنا غير قليل حول الجامع ، حتى وصلنا إلى باب الميضأة ، وهناك غسلت رجلى ودخلنا المسجد ، قاصدين إلى المكان المختار لنا فيه ، عند العمود ، أو الاسطوانة الثانية أمام باب «سيدى عبد المتعال» حيث قضيت عشرة أعوام . كان هذا المكان طيلة هذه السنوات العشر معروفا ، يقصد الينا فيه من أراد أن يستدل على « أولاد كفر هورين » . كان خلفنا تحت الدكة « أولاد مليج » وتحت شباك «سيدى عبد العال» يجلس (المرحوم) الشيخ « أحمد عجور » ومن حوله من القراء ، وكان مقرئا مشهوراً ، خلف والده الشيخ يوسف وكيل المقرأة ، وعن يميننا عمود المرحوم الشيخ قطب التلاوى وبجواره « أولاد تلا » وعن يسارنا بعض طلبة المنوفية ، وفى جهتهم كانت تجلس سيدة لا نعرف منها إلا صوتها ، تسمع القرآن بالقراءات السبع ، وكانت « تعيد المذهب » على الشيخ محمد الفقى وتطالع دروسها مع بعض كبار طلبة الشيخ من أهل المنوفية ، رحم الله الأموات منهم وبارك فى الأحياء !

٣ — وصل هذا الطالب إلى مقره ، فرأى من الطلاب

جماعات متناثرة يلتف بعضها حول بعض أحيانا. ثم أخذ يتفرس الوجوه وينظر بين القاعدين ، علّه يجد وجهاً كوجه « الفقيه » فى الكُتّاب ، أو يجد العصا و « الفلقة » ، ويذكر ماتوعده به « المزارع » ، فلا يجد من ذلك شيئاً ؛ وقد كاد يعتقد أن كل ماقاله هذا الرجل فى تصوير الجامع لم يكن إلا تهويلا ومبالغة ، لولا مارآه من المقارع بأيدى الخدم ، على الأبواب وفى الميضأة وبجانب المزارات وخارجها . هذه المقارع قطع «الجريد» الغليظة تشق مرة أو مرتين ، لتصوت إذا قرعت ، ولذلك سميت الواحدة « مقرعة » وهى من فصيلة الجريد الذى كان يتخذه الفقيه أداة للتعذيب فى الكتاب .

وقد رأى كل من بالجامع يحمل كتباً غير المصحف ، وفى يده كراسات أو « ملازم » أو أوراق من هذه الكتب ، ولم يلبث أن وجد بايدى إخوانه الذين معه أوراقا من هذا النوع أخذوا يقرءون فيها ، وقد جلسوا فى حلقة ، والشيخ ابو الفتوح يلفظ كلاما كانه تعليق على ما يقرءون ، وإنه ليحلف بالله ـ وهو لم يعتد القسم ـ أنه لم يعرف ولم يذكر أية جملة مما قاله هذا الأستاذ الصغير ، وكل مايتصوره الآن أن كان المتكلم يتبع هذه الجمل من التعليق بنقرأ وضرب بيده اليمنى على اليسرى كأنما يوقع لحناً أو نغما خاصاً وقد دهش لما لحظ أن هذه الحركات عامة عند كثير من الشيوخ فى تدريسهم .

هذا ولا يزال يرن فى أذنيه ذلك الصوت الذى كان يدوّى فى الجامع كطنين النحل . فلا يميز صوتا من آخر ، ويستمر كذلك مادام الجامع ممتلئا بالطلبة ، إلا إذا جاء « الميقاتى » فى ابتداء أوقات الصلوات الخمس ، فوقف إلى جانب الصحن ورفع رأسه متجها إلى المؤذن الجالس على المئذنة ، ونادى بنغمة خاصة وصوت مستطيل « الصـــلاة ! » فعند ذلك فقط يسكت هذا الطنين المتواصل لحظة قصيرة ثم يعود .

٤ — أصبحنا بالجامع فى حلقة قوامها تسعة طلاب أو أكثر أمام شيخ يدعى « ابرهيم نصار » رحمه الله . ولست أنسى ، بل إنى لا أزال أحفظ منه قوله « قال أصلها قوَل ، تحركت الواو وانفتح ما قبلها قلبت ألفا فصار قال » كان يرددها بنغماته الخاصة عندما بدأ يقرأ شرح ابن قاسم الغزى المبدوء بقوله : قال الشيخ الإمام العالم العلامة الخ .

كان هذا أول درس حضرته ، فكنت أعجب كيف ألقى الله فى روع الشيخ هذا الكلام ، ومن أين أتى به ، وكيف كان حريصا على تكراره والتسآل فيه ؟ ! فكان يقول سائلا : قال أصلها إيه ؟ — قوَل . جرى إيه ؟ — تحركت الواو وانفتح ماقبلها . فجرى لها إيه ؟ — قلبت ألفا . فصارت إيه ؟ — قال . وعندئذ أدركت أن مهمتنا فى الجامع — تقريبا — أن نقرأ فى الكتاب ،

ونقول كلاما من « علم الغيب » مثل هؤلاء الناس ! ولكنى علمت بعدئذ أن ما قاله الشيخ ليس من عنده ، وإنما هو نقل عن حاشية البرماوى على الشرح المذكور .

٥ — لحظت بعد عصر اليوم بالجامع استعدادا غير مألوف تحت الجزء القبلى من الدكة ، حيث فرشت البسط الفخمة ، ونصبت المائلات (الشمعدانات) الضخمة ، وعلقت ثريات (نجف) متلألئة ، وأبعد الطلبة عن هذا المكان . لماذا كل هذا ؟ إن المشيخة تحتفل ابتهاجا بميلاد حضرة صاحب السمو الأمير محمد عبد المنعم ولى عهد الديار المصرية إذ ذاك .

وللمشيخة عادة بإقامة حفلات كثيرة فى هذا المكان ، لمناسبات شتى ، واحتفالا بليال وأيام إسلامية مقدسة ، كالمعراج والمولد النبوى وغيرهما على النحو الآتى : إذا صليت العشاء ، توافد العلماء والوجوه والأعيان والحكام والجمهور ، وتزاحم الطلبة حول هذا المكان ، وأخذ الشيخ « صالح » والمشدون يزجرونهم ليفسحوا الطريق للقادمين ، وارتفعت الأصوات من كل جانب ، وعلت الضوضاء حول الجالسين ، فلا يقطعها إلا جلوس أحد كبار العلماء على رأس الحلقة الملتئمة ، كأنه يلقى درسا ، ثم يقرأ القصة الشريفة ، قصة المولد النبوى . وكان مثل هذا الاحتفال مقصورا على الليالى الأربع الأخيرة من ليالى ١٢ من ربيع الأول ،

ولـكن المغفور له الشيخ « ابراهيم الظواهرى » شيخ الجامع جعل الاحتفال بإحياء جميع هذه الليالى من أول الشهر .

أما فى ليالى عاشوراء ، والمعراج ، والنصف من شعبان ، وليلة القدر ، فيحتفل بقراءة فضائل تلك الليلة على النحو السابق.

وقد أضاف لمثل هذه الحفلات ، المرحوم الشيخ « ابراهيم الظواهرى » شيخ الجامع ، إحياء ليلة تتلى فيهـا مناقب السيد البدوى رضى الله عنه فى آخر كل سنة هجرية .

وقد كانت تقام مثل هذه الحفلات الدينية فى مساجد أخرى ، مثل مسجد سيدى « عز الرجال » وزاوية الشيخ « القصبى » . وكان يحضر فى الأخيرة المرحوم السيد حسين القصبى . وتمتاز حفلاتها بالمظاهر الارستقراطية ، وبقلة العدد ، وبالهدوء والاحترام ؛ ولذلك كنا نفضلها ، وقلما يفوتنا منها شرابها اللذيذ ، وأصناف الحلوى التى لم تـكن تتمتع بها انظارنا ، بله حلوقنا .

فى البيت

١ — قد شهدنا بالجامع مناظر عدة ، وسواء أطال النهار أم قصر ، فلنعد إلى البيت لنقابل أهله ، وليساومهم والدى فى أجره ، وليشرف على مضجعى هناك ، وليرتب لى أمورى قبل أن يعود إلى القرية .

يحيط بمدينة طنطا أو يدخل فى تكوينها بضع ضواح تدعى بالكفرات : منها غربا كفرة ستوتة وكفرة السجن وكفرة أبى النجا ، وفى شمالها كفرة اسكاروس وكفرة على أغا ، أما كفرة القرشى ، وفيها منزلنا ، فتمتد فى شرقها خلف سكة حديد دمياط ، من قنطرة سمنود (أو البدراوى) شمالا إلى ما يقرب من كفرة الجاز وكفرة الخادم جنوبا . وترى بيتنا ثانى منزل على يمين الداخل إلى الحارة الثانية من ناحية الكفرة البحرية ، وكانت تعرف بحـــارة « أبى شليب » . وبين البيت والجامع نحو ميل ، يقطعه الذاهب الى الجامع والآيب منه كل يوم .

قابلنا صاحب المنزل الشيخ أحمد صالح العليمى (رحمه الله) ، وكان شيخا لمقام سيدى عبد المتعال وتقاعد ، فحيانا تحية الكرام ، ورحب بنا أيما ترحيب ، وقد حاول والدى أن يقدم

له خمسة قروش ، فردها بإباء وشمم . وأتبع الرد ببضع نكات طريفة ، وكان رجلا فكها . وكاد يعتبر تقديم هذا المبلغ إليه إهانة له ، خشية أن تكون أجرا للمنزل فى الشهر ، كما دار بخلد والدى ، واستنكر أن يأخذ أجرا لمنزله ، لقرابة له كانت فى قريتنا ، فاكتفى والدى بأن يرسل له من القمح والذرة وغيرهما من الغلات ، ما إعتاد أن يرسله إليه أغنياء القرية فى مواسم الحصاد على « عادة » الريفيين .

لنترك قاعة رب البيت ولنذهب إلى قاعتنا ، لتناول العشاء ، وليتحدث والدى مع الشيخ أبى الفتوح فى الكتب والمصروفات وغيرهما .

كان والدى قد أعطانى نصف القرش ، فكلفنى شراء كراث للعشاء ، فاشتريت منه بفلس (مليم) وبقى معى أربعة ، وبعد تناول العشاء نمنا ثم أصبحنا ، سألنى والدى عن نصف القرش الذى أعطانيه ، فأخبرته أنى اشتريت منه كراثا بفلس ، وحاولت إخراج الباقى من جيبى فلم أجده ، وهنا أعلن والدى أن هذا كان اختبارا الى أظهرت به عدم الصلاحية لحمل النقود ، ولا لتولى شئونى المالية ، ولم ينفعنى اعتذارى آخر النهار بأن باقى نصف القرش لم يضع منه شىء ، لأنى وجدته فى السفرة (القوطة) فى فتات الخبز ! وكانت تجربة قاسية ، واختبارا غير منظور ، فقدت بسببهما الثقة فى المقدرة على حمل النقود ، والاستقلال بشئونى

المالية ، وصرت تابعا فيها فوق تبعيتى الأدبية لقائدى ومقودى . ولعلك الآن فى شوق إلى وصف المنزل وطريقة معيشتنا فيه فيما بعد

٢ — يتكون المنزل من طبقين ، الأول فيه ثلاث قاعات ومدخل وسلم ، وأخدود مسور تحت السلم يكون كنيفاً ، أما الطبق الثانى ففيه أربع غرف أو أربعة « مقاعد » والمقعد الغرفة العليا فى عرف الريفيين ومن إليهم مثل سكان هذه الضاحية . وكان صاحب المنزل يشتو فى إحدى القاعات ويصيف فى أحد المقاعد ، وكذلك كنا نعمل ، وكانت « سحارات » الخبز أو أصونة المتاع تتبادل معنا المسكن ، فتنزل صيفاً وتصعد شتاء .

واذكر أنه فى خلال السنوات العشر التى قضيتها فى هذا المنزل بلغ عدد « أولاد كفر هورين » فى حجرتهم ثلاثة عشر طالبا ، ينامون فيها صفين متلاصقين « كالسردين »

أما الفرش فكان حصيراً من « الشريخ » ، علاه فى الفترة الأخيرة من حياتنا هناك فروة أو « سجادة » أعجمية كانت من مخلفات الأسرة عندنا ، من بقايا ما أحضره والدى رحمه الله معه من الحجاز . وكان لكل طالب غطاؤه ، ويختلف بين « بطانية » و « لحاف » أو « حمل » من الصوف .

وفى كل ركن من الأركان الثلاثة للغرفة ، كان يشد حبل إلى

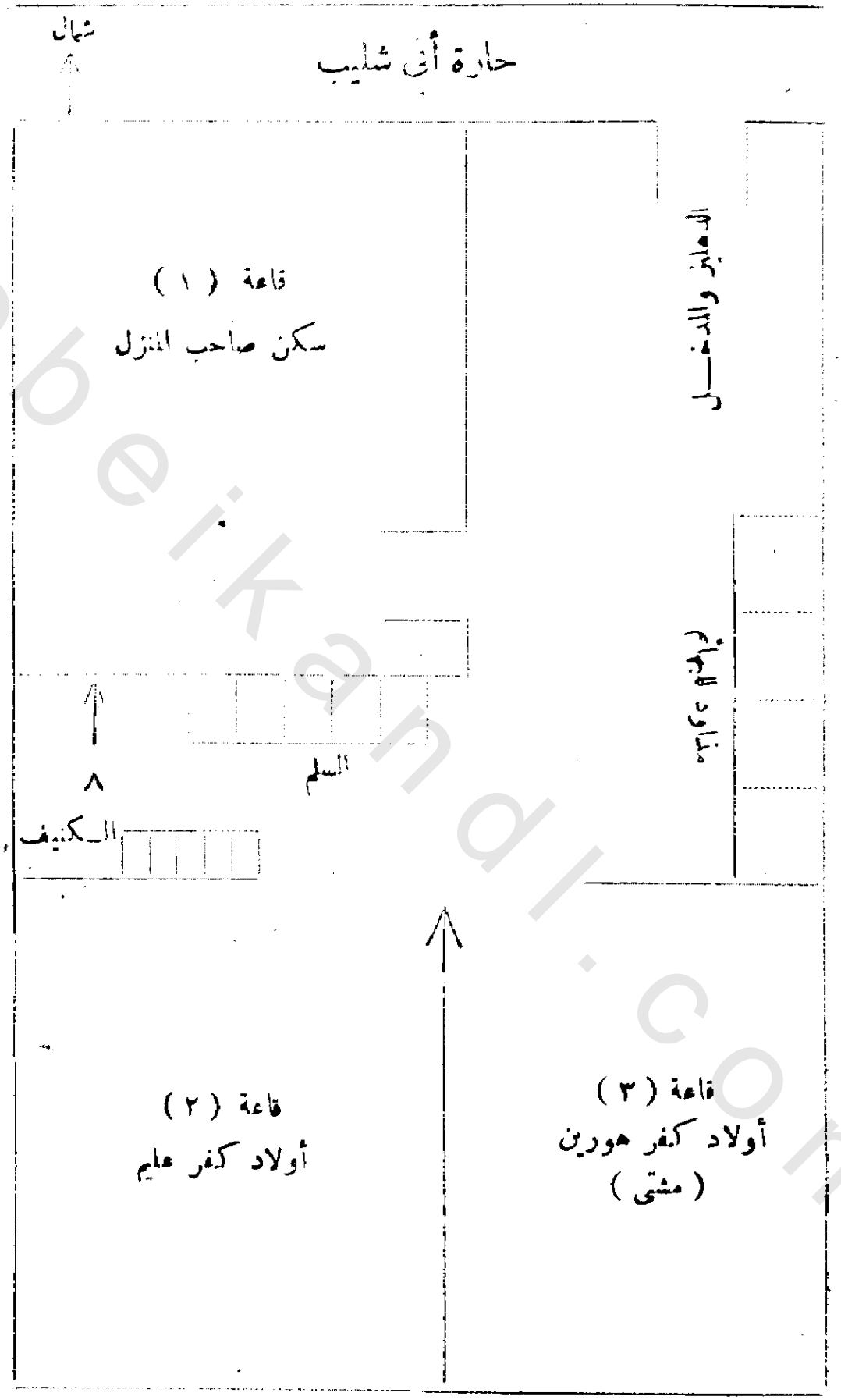

الطابق الأول من المنزل

obeikandl.com

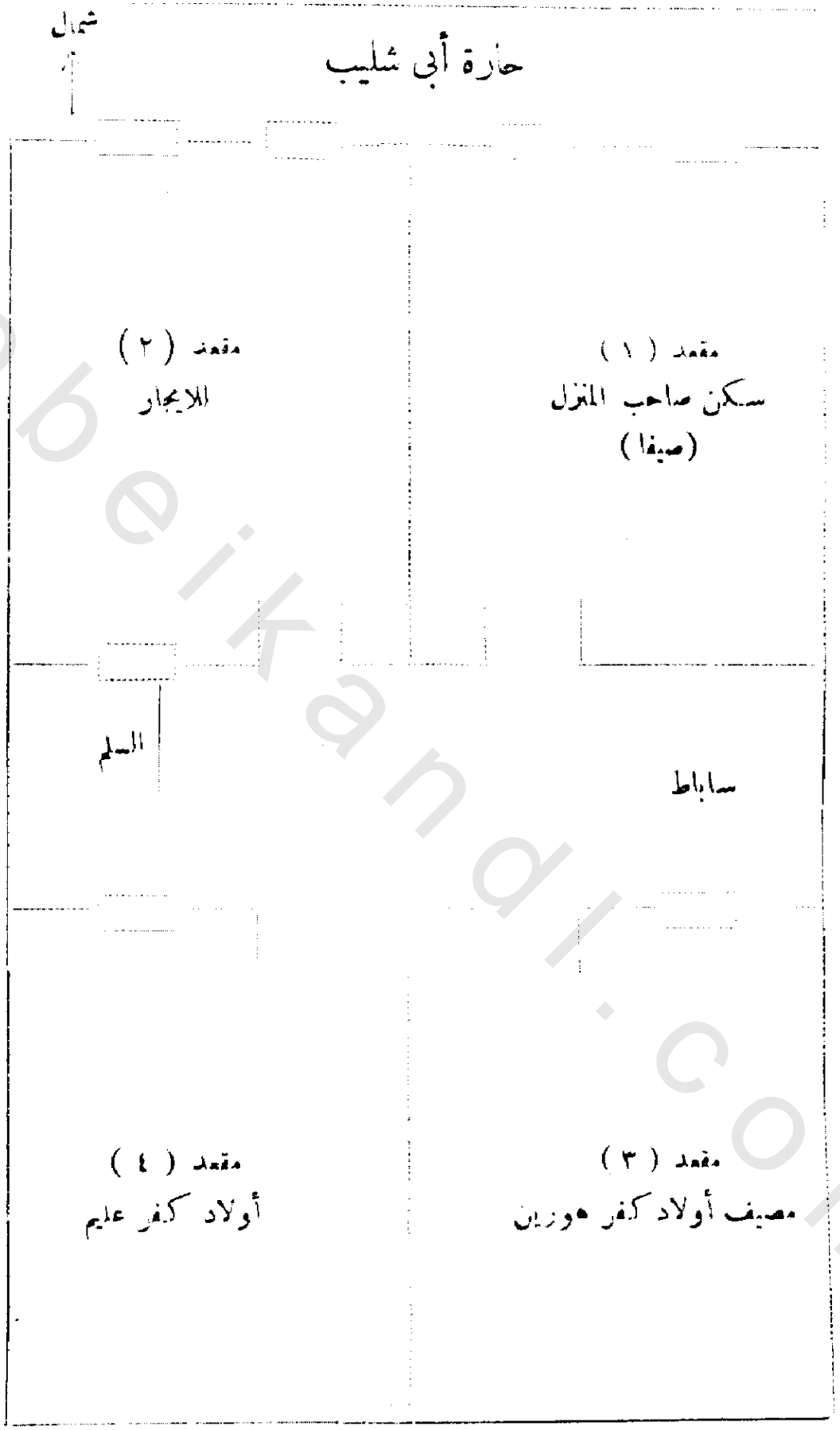

الطابق الثانى من المنزل

obeikandl.com

مسمارين أو وتدين فى الحائط ، ويعرف «بالسيّارة» ، تعلق عليه الملابس ، ملابس النوم نهاراً أو ملابس الخروج ليلا . أما مافضل من الملابس النظيفة فكان يودع الصوان أو « السَّحارة » وهى صندوق خشبى من صناديق البضائع كان يشترى بنحو ربع ريال ، ويعمل له باب وقفل ورف ، ليحجز بين الطعام واللباس والكتب ، وسائر المتاع الخفيف . ولم يتجاوز مصباحنا رقم ٥ ، كما كنا نستق فى قلة كبيرة أو إبريق من الفخار ، نملؤه من جرة أو زير أهل المنزل .

وقد كان الطلبة يتناوبون تنظيف مسكنهم بالرش والكنس والتمرين بالماء ، كما يتناوبون العمل فى شراء الطعام الذى يأتدمون به من خارج المنزل ، وفى قضاء بعض مصالح أهله . ولست أنسى ليالى كنا نعود إلى المقعد فى الربيع أو الصيف فنخلع نعالنا أمامه ونكشف عن ساقينا ونمر فيه مثنى وثلاث ، لنصيد البراغيث التى تتسلق سيقاننا كالجوارب فنفركها خارجه . أما نظافة المنزل عامة فنحن مسئولون عن العبث بها ، ومضطرون أحيانا إلى الخروج منه نحو « الجنابية » المجاورة لقضاء الحاجة فيها قبل النوم وفى الصباح إن تيسر ذلك .

٣ — أما صلة الطلاب بأهل المنزل فقد كانت صلة عائلية لبعضهم ، كما كانت تبنى على الحذر لبعض آخر ؛ ولم يكن يخفى

عليهم مايشوب سلوك بعض المجاورين . فيعلنون ذلك لمن لم الرقابه عليهم من كبار الطلاب . وقد لحظت فيمن كان معنا ، أن من حدثته نفسه بسلوك الطريق المعوجة . كان عيشه ينقطع وتنبت صلته بالعلم وأهله .

ومع أن المجاورين أهل علم ، كان الفساد منتشراً بينهم ، لبعد بعضهم عن العمل بأحكام الشريعة التى كانوا يفنون أعمارهم فى دراستها .

وإنى أحمد الله على أن كنت موضع ثقة وأمانة من أهل منزلنا ، كما كان يثق بى الزائرون والزائرات من أهل القرية عند مبيتهم معنا ، وكان لسنى الصغيرة ، ونشأتى المحروسة ، وشدة الاستئمان ، أثر فى مثل هذا السلوك .

ولا يفوتنى أن أجعل مسك ختام هذا الموضوع كلمة ثناء وخير ، أخص بها آل هذا المنزل الصالحين ، من والدهم الكبير المرحوم الشيخ احمد إلى ابنه الوحيد الشيخ محمد واختيه العزيزتين زينب وفاطمة ، فقد عطفوا علىّ عطف الوالدين والأخوة ، وبسطوا علىّ جناح الرعاية والاكرام ، فاذا ذكرت فى الكتاب امى فاطمة وامى السيدة فلن أنسى هذه الاسرة الكريمة ، فأحمل النسيم كل يوم تحياتى القلبية للاحياء منهم ، واستمطر الله شآبيب الرحمة والرضوان على قبور من سبقونا إلى ساحة الخلد .

إجازة

بدأ شهر ذى القعدة ينسلخ (ابريل سنة ١٨٩٩ م) وتناقل الطلبة أحاديث عيد الأضحى . وأخذت الدروس يقل عدد طلابها وانفضت الحلقات حلقة بعد حلقة . وكان بعض الشيوخ يجلس إلى عموده ولكن بدون دراسة ، بل يقطع وقته فى الحديث بدل الدرس ، حرصاً على جمهرة الطلبة الذين سافروا إلى بلادهم . وفى ذات يوم توجهنا للمنزل ، فأُمرت بحزم متاعى وصرّ ملابسى وإذا بنا على ظهور الأتان ، فى طريقنا إلى البلد .

منذ شهر أو أكثر جلس الطالبان الكبيران معنا . واخذ أحدهم يذرف الدمع ، والآخر يتمتم بكلمات ، علمت فيما بعد أنها حنين إلى الوطن ، وبكاء من الفراق ، فراق الوالدين ، وشكوى ألم الغربة ! لم أتمتع أنا بمثل هذا الشعور ، لأنهما ربما كانا ينعمان فى القرية بين والديهما وإخوتهما ، أما أنا فلا أدرك من الغربة والفراق ، إلا أنهما راحة من الكُتّاب ، ومن تكاليف أوقات الفراغ فى المنزل والحقل ، بين ريّ وحشّ ، وحراسة للنحل ، وسقى للبهائم ، وحمل الصينية على رأسى للدوار ، وغير ذلك .

ولكن هل كنت أنا أقل المسافرين فرحا بهذه الرحلة ؟ ! لا ! لقد استغرقت السفرة أفكارى فى الطريق ومشاهداته ،

والقرى التى أمر بها ، وحفظ أسمائها الغريبة من سبرباى إلى شبرا قاص وشبرابيل ، والجعفرية ، ولو كنت اشتغلت باللغة فى ذلك الوقت لكان لى نصيب من تحليل هذه الأسماء ومعرفة المصرى منها والعربى ، وغير ذلك ، ولم تع ذاكرتى إلى الآن من هذه السفرة ، إلا جزءاً من الطريق الزراعى قطعنا منه بريداً(١) ، وأشرفنا على قرية « الجعفرية » قبيل غروب الشمس وترجلت عن أتانى ، أعبث بنبات الفول « المكسور » أى المحصود ، والذى تناثر فى الطريق ، من على ظهور الجمال عند نقله من الحقل إلى الجرين أو الجرن . عجبا !! فول أخضر فى أول نظرة حين حللت بطنطا ، وفول يحصد فى آخر أول « عمالة » قضيتها فى الجامع ! ! لعل ذلك فأل حسن على طول العمر إلى أن ينال الإنسان علما ، ويحصل على ثمرة من جهاده أى ثمرة ، فبعض عيدان الفول يحمل ثمرة جيدة وبعضها قليل الثمر ، وآخر خال إلا من حبة أو ثنتين ، على حين يحمل المثمر جيداً أكثر من مائة حتة ، والله يضاعف لمن يشاء والله فتاح عليم .

وصلت الدار بعد غربة شهرين ، لم أر فيهما وجه أمى ، ولا أقول وجه أبى ، لأن الأم كانت مصدر الحنان ، والأب مصدر

(١) من محفوظات المجاورة :

إن البريد من الفراسخ أربع ... والفرسخ فثلاث أميال ضعوا

والميل ألف أى من الباعات قل ... والباع أربع أذرع فتتبعوا

الحساب والمسئولية . كانت ، رحمها الله ، مشغولة بإعداد العشاء ورائحته ، عند الجاور ، تؤثر فى خياشيمه ، التى لم تتمتع بمثل هذه الرائحة عن قرب إلا فى الشوارع ، حين يمر بمطعم ، وشتان بين الرائحتين ! ! رائحة الطبيخ التجارى ، والطبيخ البيتى القروى ، المحلى بالدجاج واللحم و « التقلية » والمدسوس فى الفرن بعد خبز العيش الطرى ! !

لندع هذه اللذة ، ولأتقدم بحقيبة الكتب (أو الخرج) أمام والدى ، فأجلس منه جلسة أيام « الكتاب » ، ولكنى لا أنتظر منه اليوم ضربا ، فإنى مجاور ، ولن يسألنى فى سماع متن ، أو حفظ ربع أو جزء ! ! إن الامتحان اليوم فى مقدار ما أخذنا من ابن قاسم والكفراوى ، وبعض أسئلة فى اعراب كلمات أو جمل ، أو بعض أحكام فقهية ، لم تكن من الصعوبة بمكان ! وهكذا كانت مقابلة والدى بعد وصولى إلى البلد فى المسامحات إلى ثلاث سنوات ، انقطع الامتحان بعدها ، اعترافا منه لوالدتى بأنى صرت أعلم منه ! !

حمارتنا

يقول القارىء ما لهذا الطويل يسوق إلينا حديث حمارتهم ، وماذا يريد أن يدلى به إلينا ، عن هذا الحيوان ؟!

ولكن لا تعجل ! فهو يرى فى حمارته خير نموذج للتحمل والصبر والمثابرة . ألا تدرى أن الخليفة مروان كان يلقب بالحمار ؟ ! لهذا يرجوك فى الاستماع للحديث الذى علونه بالحمارة ولكنه يشمل سفره ونفقته ، ويصف فيه عملية خروجه من المنزل إلى طنطا ، هذه العملية التى كانت تتكرر فى السنة مرات .

لا تحسبن السفر الى طنطا كل مرة سيكون بالقطار كما

وصف لك فى أول رحلته ، فالعادة تفقد كل جديد جدته ، وكل لذيذ لذته ، والمثل العامى يقول : «لكل غربال جديد شدة»

دارت الأيام وكثر السفر ذهابا وجيئة ، وكما يقولون : «طال حبل العبادة» وكثرت المطالب ، وهرب المطلوب من الطالب ، واستقل بعيشته ونفقته ذلك الطالب ، فعليه أن يرتب أموره ، ويحزم متاعه ، ويمتطى مطيته ، ويبحث عمن يرافقه ، ليساعده فى الطريق ويرجع بالخمارة . فالسفر فى السكة الحديدية يستدعى أجرة القطار ،والحاجة اليها فى الإنفاق ملحة ، ويتطلب مطية الى المحطة ، والمطية التى تحمله ومتاعه ٤ أميال لا يبعد عليها أن تحمله أربعة أمثال هذه المسافة .

حزم المتاع ، وحاولت استعارة أتان فلان ، وهى أسوأ حالا من حمارتنا ، فاعتذر بمرض أتانه واضطررت لامتطاء حمارتنا ، وهممت بسرجها ووضع المتاع عليها ، من حقيبة الزاد وخرج الملابس والكتب ، ولحاف ومخدة ، وعباءة صوفية ، أرتديها نهارا ، وأزيد بها غطائى ليلا ، وقد أفترشها فى الجامع، إذا اشتدت رطوبة البلاط عن برودة الجو .

أين أنى ؟ أريد نفقه أو مصروفا ! أريد أجرة «المركب» أو «المعدية» أو المعبر ،عند الجعفرية ، فى طريقنا إلى طنطا هناك بحر شبين ، وعلىّ أن أعبره لقاء نصف قرش ! أريد مصروفى

طول « العالة » وقد تربو على أشهر . جاء والدى ، فاستنكر عدم سفرى ، وتجاهل سبب عطلتى عن السفر . فيحتشد جمع من آل البيت والأقارب والأصدقاء المودعين ، وتعقد الجلسة ، ثم تتمخض عن ربع ريال أو خمسة قروش يدفعها أحد الحاضرين ، أو أضطر إلى أخذها من عمى « على الإمام » من ثمن الخبازى التى يزرعها شركة مناصفة بينه وبين أبى . بقى البحث عمن يحضر الحمارة ! قد أجده ، وقد أعتمد على شخص صحب غيرى من المجاورين ، ليعود بها إلى البلد .

ها نحن أولاء أمام « وحسة » المعبر ، وعلى حمارتى أن تطفر أو تطمر من وإلى المركب ، وويل لى إذا لم تستطع ذلك ، لارتفاع النيل أو انخفاضه ! فكيف أحمل عنها المتاع وحدى ، وأضعه فى لمعداة ، وبعد العبور ، كيف أعيده عليها ، فى الشط الآخر من هذا البحر ؟! وهنا قد ييأس عمى « بخيت المراكبى » وقد ازدحمت مركبه فيتركنى مرة أو مرتين يعبر فيها هذا الجدول ، لأن اليوم سوق فى البلد أو فى غيرها ، حتى يقيض الله من ينقذنى من هذا الموقف ، على معرفة أو غير معرفة . توسط المعبر اللجة ، وجاء عمى « بخيت » يطلب الأجرة ! ليس معى غير ربع الريال صحيحاً ، فاذا وصل إلى يده ، ادعى أن ليس معه بقيته ، أو يحجز أكثر من نصف القرش ! ولكنى قد اتخذت الاحتياط فحصلت على نصف قرش من النيكل

أدفعه إليه أجراً ، فقد يضعه فى جيبه . وقد يقف ليذكر أنه محتاج إلى أجرتى وأجرة حمارتى وأجرة زوادتى !

تنتهى هذه المشكلة ، ونعبر هذا الجدول ، ونسرع إلى الطريق الزراعية . ويلاه ؟ بطء فى المنزل . قبل إعداد المتاع ! وبطء أمام المعبر ! وبطء فى المعبر نفسه . وبطء بعد العبور ! فالشمس قد علت ، وأخذت حرارة أشعتها تحرك حتى الهواء ، ولكنها لم تستطع أن تؤثر فى حمارتى ! حاه ! حـــاه ! حـــاه ! كل هذا زجر للحمارة ، ولكن فى غير مزدجر ! عصاى تنزل على رقبتها ، وقد أستدير فألهبها بها على ردافها ، ولكنها عصا ضعيفة قدت من عود قطن أو جريدة نخل قديمة ، فأعياها الضرب وتكسرت ، كما أعيتنى حركة اليدين والرجلين ! وألتفت حولى على أجد معينا أو عصا غليظة جامدة ، فلا أجد غير دموع تسعفنى ، وأصوات بكاء لا يسمعها أحد ، لأن المكان قد خلا حتى من الزراع الذين انصرفوا إلى الظل ! وبهذه السرعة أو هذا البطء أقطع المسافة بين البلد وطنطا فى ست أو سبع ساعات ، على حين يقطعها غيرى فى أقل من أربع !

وأيا كان ما قاسيت من حمارتنا الصابرة ، فقد شاطرتها دروس التحمل والصبر ، والتأنى والمثابرة ، فقد ثابرتُ وصبرت وأخيراً وصلت ، ولا بد من طنطا وإن طال السفر !

هـــرب

استيقظنا صبيحة يوم ، وإذا بفراشي ، أثر بلل لا قبل لى بدفعه ! فأخذ سائر الطلاب ينهرونني على غير عادة ، ورأيت منهم روح التذمر والتعصب ، وقد كان الاضطهاد باديا فى أقوالهم وأفعالهم ، جامعا بين صغيرهم وكبيرهم ، لم يفرق بين عدوهم وصديقهم ! ليست هذه عادتهم ! ولكنها حملة لم تكن فى شدتها على قدر ما اعتبروه جريرة أو ذنبا ! لقد أجرمت كثيرا ، وأخطأت كثيرا ، ولاموني كثيرا ، ولكن كان اللوم خفيفا ، ولم يتعد القيمّ على ، فأرى روح الشر فى تعنيفهم ، وأكثر من اللوم فى تنديدهم ! فماذا أفعل ! إنهم أعلنوا علىّ الحرب ، وواجهوني بالعداء واتحدوا على التنكيل بى ، وظنوا أن هذه الغلطة خير سبب يتذرعون به إلى إهانتى وإذلالى ، وإن كانت الإهانات قد تكررت من قبل سرا ، وظنوا أن ليس فى استطاعتى أن أبوح بما كان منى ومنهم ! !

ضاقت بى الدنيا على سعتها ، ففررت منهم لما خفتهم ، حتى إذا انصرفوا إلى الدرس ، دونى ، وحضرت الدرس الأول ، شارد الذهن ، عدت إلى المنزل ، على غير عادة ، ووضعت

الطنجير والملابس القذرة فى «خُرْج» جاءنى بالأمس مملوء خيرا، ثم وضعته على كتفى وأسلمت رجلىَّ للطريق الزراعية إلى البلد! ما هذا؟! أجائع أنا حتى أهرب من طنطا إلى البلد؟! أليس «الخرج» وما فيه دليلا على أن «الأرز والدجاج» لا يزال فى معدتى؟! وكيف أختلق الأسباب لهذا الهرب؟! لقد حار الغضبُ فى نفسى الأدلة علىّ، حجَّة لى! فلا أقل من أن يعتقد الوالد أن الذى ألجأنى إلى هذا الهرب أو هذا «الكُفر» شىء عظيم! ثم يعطينى العذر، ويرسلنى ثانيا بعد التحقيق فى هذه القضية!

سرت لا على بركة الله، بل فى حيرة وتردد، وكان الفصل شتاء، ونبهنى رذاذ المطر فى أول الطريق إلى العودة، أو استئناف التفكير فى الأمر، ولكن لم يزدنى هطوله إلا إمعانا فى الهرب، وإسراعاً فى المسير؛ وهى عادتى فى التمادى إذا اشتدت المعارضة، لأنى اعتدت أن أجعل المعارضة تشحذ من إرادتى، خروجا على القولة المأثورة، «الرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل»؛ ومع احترامى لهذا الأثر وصاحبه، فإنى أفضل تربيـة الإرادة بالتمـادى — إلى حدّمّـا — على التردد، بالرجوع إلى ما قد لا يكون حقا!!

كان علىَّ أن أقطع، سائراً على قدمى، فى هذا الوابل المنهمر، ستة عشر ميـلا؛ فلم يكد الطريق ينتصف حتى كانت الأرض

زلقة . كأنما غطيت بالصابون ! فلا يضع الإنسان رجله فتثبت فى مكانها ، مهما قدّر لها موضعها قبل الخطو .

ولقد تلاقيت فى منتصف الطريق وعروسا ريفية ، حملها أهلوها فى هودج على جمل ، وتبعها بعض الفلاحين رجالا وركبانا . لم يرحم المطر والريح هودج العروس حتى عبثا به وأطبقاه عليها ، ولم يرحم الجمل الذى حمل الهودج ، حين كانت أرجله تنفرج انفراجا اضطراريا ، ولم يرحم الأتن وراكبيها ، ولم يعد للرحمة فى نزوله وهطوله أثر فى ملابسى و « خُرجى » وما احتوى من حذاء خلعته ، وملابس أودعته إياه . ألهتنى هذه العروس وأهلها ، وعبث المطر بهم ، عن التفكير فى باقى الطريق ، وفيما بعد الطريق من ملاقاة والدى — وقتا مّا استغرق ربع الطريق ؛ وقد سررت للقاء هذه القافلة والاستئناس بها ، حتى فاجأتنى باتجاه آخر ليس من طريقى ، فتصببت فى هذا الشتاء عرقا ، جاء على بقية شعارى الذى لم يصله ماء المطر ، فصرت غريقا فى ثيابى المبللة ، شعارا ودثارا .

وصلت إلى البلد قبيل العصر ، وكان الجو قد انقشع سحابه ، وتسللت إلى الدار أسترق الخطا .

قابلتنى الوالدة رحمها الله مقابلة الأم ، فأسرعت الى تغيير ملابسى ، وبادرت بتقديم طاس من البيض المقلى غداء لى !

أخذت ألتهم طعامى راجيا ألا يقطع أبى علىَّ هذه الأكلة . وقد أجاب الله دعائى ! احتبس المطرُ والدى فى كوخ كان يجلس فيه بعض أعيان القرية ، ولم يزحزحه عن مجلسه الا سقوط الخبر فى أذنه ، فأسرع الى البيت يستطلع الخبر ! حالت الأم بينى وبينه ، قاصة كل ماحكيت لها ،وقد تعودوا منى أو عودونى عدم الكذب ، معتذرة فى غير طائل . فلم يمنعه ذلك من أن يقسم أن « أعود من حيث جئت ! » أراد بيمينه ـ ولم يعتد غير الصدق ـ غدا صباحا ، وأنا أتوهم أنه الآن ! وكيف ذلك ونحن قبيل المغرب والوقت شتاء ، وليس فى الاستطاعة أن أعود فى اليوم نفسه ماشيا إلى طنطا ؟

بت ليلتها ، وعدت إلى طنطا كما جئت فى صباح اليوم التالى. وإذا كان الوالد لم يقم لهذا العمل وزنا فقد كان احتجاجا عمليا فعليا ، تنفس بعد قليل عن استقلالى أو افتراق الرفاق .

استقلال « أو » افتراق الرفاق

مكث الرفاق الأربعة (أنظر صفحة ١٦) سنتين كاملتين ، تتلاقى بالمنزل أيديهم فى تلك الشفرة ذات العروة أو الأذن الواحدة ، وكانت « قوطة » من الخوص ، صنعها والد أحدهم ليضع فيها ابنه الطعام وقت الأكل . فى هذا « المقطف » الصغير كان كل واحد منهم يضع قليلا من خبزه ، مع الاشتراك فى الإدام أو فى ثمنه .

وقد سوّت الصحبة بين هؤلاء الرفاق ، لاجتماعهم على الطعام فى المنزل ليلا وفى الجامع نهارا ، وجمع النقود اللازمة لمصرفهم جملة فى كل أسبوع أو شهر ؛ على أن زاد كل منهم كان يختلف من حيث الجودة والصناعة ، والكمية والتركيب ، كما كانت « الزيارات » التى يتحفهم بها ذووهم تختلف كذلك كمية وصنفا ، وتتقارب أو تتباعد فتراتها كذلك ، لاختلاف حالهم فى اليسار والإعسار ، والإنفاق والتقتير .

ولم يفت هذا الصبى — وهو أصغرهم — أن يلحظ ما كان من تباطؤ بعضهم وتواكله عن احضار نصيبه من الخبز ، وأن يدرك أن الصغار منهم يتحملون من الزاد والتفقات أكثر مما يأكلون ومما يستحقون ، فلم تكن النفقة متكافئة مع حاجة كل

منهم ؛ كما كانوا يُستخدمون ويُسخَّرون بإسراف وعنف لمصلحة غيرهم ؛ وكان هذا مبدأ تغير النفوس وتنافر القلوب ، فأخذ الانحلال يدب إلى روح الاجتماع عند هذه الصحبة .

وصارت هذه المعيشة الاجتماعية — على دقتها وملاءمتها الظاهرية — مثار تنافس وتشاحن ، برىء حينا وغاشم أحيانا ، سرا وجهرا ، فلم تدم أكثر من هاتين السنتين ، إذ بدأت بعدهما وفود الطلبة تتوارد من القرية ، حتى بلغ عددهم فى هذا المسكن ثلاثة عشر طالبا (صفحة ٣٠) . أخذ الصغير يكبر ، والخاضع يشعر بثقل وطأة الاستعباد ، ويحاول التخلص من ربقة الاستبداد ؛ ومَثل هذه الجماعة الصغيرة فى تنافرها وحركاتها مَثل الأمم الصغيرة التى ترعى شؤنها دولة قوية ؛ فقد يظن المشرف أن القوة التى يستمدها من اشرافه لن يصيبها الوهن ، ولن تصير إلى الضعف أو الزوال ! ولكن : أليس الصغير والكبير ، أو الولى والمولى عليه ، كفتى ميزان فى يد القدر يعتورهما النقصان والرجحان ؟ !

بقى هذا الطالب هدفا للوم من يقوده ، واضطهاد وغبن الرفيقين الآخرين ، وكثرت الفتن والشكايات بحق أو بغير حق ، بل بقلب الحقائق ، كل ذلك والفتى الصغير عاجز عن المقاومة ، بل عن بث شكواه ، اللهم إلا ما كان من هربه والفرار

من هذه الجماعة ، ليكون ذلك إعلانا لاستيائه ، وفاتحة لخروجه على من لا يرحمونه .

لم يكف وليه أو مقوده ما قام به من خدمته ، مخلصا له ، متحملا أذى كثيراً ، فى النفس والمال ، والصحة والنفقة . هو لا يبصر ما يعمله الرفيقان الآخران من ظلم فى قسمة الأكل والخبز ، ولا يعلم ما ينوء به من مطاردتهما فى كل مكان ، وكثرت سعايتهما لديه ، وليس فى مقدور هذا الضعيف أن يحتج إلى وليه على ما يلقى منهما ، ولا أن يبث شكواه لوالده إذ ضغطه عليه فى الطاعة العمياء شديد .

لم تعد صحته تحتمل القيام من النوم بعد نصف الليل بساعة فى ليالى الشتاء ، والوقوف ساعتين على « باب الرخام » فى قر الشتاء وزمهريره فى المطر الهاطل والرياح اللافحة ؟ وياليت هذا الشقاء الدائم والسهر الطويل كانا فى تحصيل العلم ! بل كان مضطراً إلى القيام فى هذا الوقت وفى جوف الليل البهيم ، ليتوجه مع مقوده إلى الكنيف أو « بيت الراحة » حيث يقضى فى المرحاض ساعة أو أكثر قبيل الفجر . وويل له إذا أخذه النوم وهو واقف فى انتظاره فى طرقات المراحيض المبلطة ! وكيف له ألا ينام وهو لم ينم فى الليلة أكثر من أربع ساعات ، وهو صغير ، والنهار كله شقاء ودراسة ؟ .

أما سيرنا فى الطريق ليلا ، فى وحل الشتاء ، تحت رذاذ المطر

ووابله ، وهو واضع يده على كتفى يدفعها إلى الأمام ويجذبها للوراء ، حينما يحس تقدم الرفيقين أو تأخرهما وهو لا يرغب فى السير معهما ، بل يريد أن يتقدم عليهما أو يتأخر لئلا يجمعهما الطريق بنا ! وأما عثورى فى الظلماء ، ليله الشتاء فى حلكة الطرق الضيقة والسحاب ، أو ديجور الأرض والسماء ، — فكان كل ذلك يعتبر جريمة لا تغتفر ، ولا أفلت من عقاب عليها باللكم واللكز ، مما ترك أثرا فى أسنانى للآن .

وكيف أعاقب على سرقة حذائه الذى كان معى ، ونحن معا فى درس واحد ، وقد اعتدت حمله سنتين متواليتين ! والحسنات فى نظره لا يذهبن هذه السيئة !

هذه الحوادث وغيرها حملتنى على البدء فى النفور ، وعمل ما يزيح عن عاتقى نير هذا الظلم ، والتخلص من تلك القسوة ، بلا مبرر .

أما المعركة الأخيرة ، فكانت فى الجامع ، حيث طلب الكبير منى شيئا كان معى فرفضت إعطاءه ، وحاول أخذه عنوة ، وقام إلىّ فأمسك بإصبعى الخنصر ولواه حتى كاد ينكسر ، فصرخت : آه يا صباعى ، فسكت الجامع لهذه الصرخة ، وسرعان ما اقتادنا الملاحظون أو الخدم إلى حيث عرضت القضية ، وشرحت الواقعة وانتهت بإدانته ، واسترضانى

الشيخ « صالح » بضربه بضع مقارع ! ويعلم الله أنى من ذلك الوقت والألم يحز فى قلبى لعقوبته مع ظلمه ، ولا أزال أذكر أنه كان يضرب بالمقرعة وما دفع بيده أو دافع عن نفسه ، لأنه لم يبصر ما الرجل فاعل به !

اجتمع الرفاق الثلاثة وكتبوا لوالدى خطابا وصفوا به ما كان ، « فصرخ صرخة عظيمة وسكت الجامع ، وقالوا جرى إيه ! » . ويظهر أنهم أسندوا الخصام لحرصهم على مصلحتى ، وإسدائهم النصائح إلى ، بالالتفات للدروس ، وعدم التردد على « باب الرخام » وبيع الترمس هناك . ولأقرر الآن — وأسفى شديد على من سبقنا منهم إلى الدار الآخرة — أن وجودى عند باب الرخام لم يكن إلا طلبا للاستجمام والراحة من المطالعة والدرس مع التفكير والتعقل ، وتخلصا من السآمة والملل ، وإن تبع ذلك صرف فلس أو فلسين فى طعام مستملح ، أو شىء يتفكه أو يتسلى به ؛ فقد اعتدت الغذاء الجيد ، ولم يكفنى ما أتناوله معهم شركة من طعام ناقص ، مع طول الدرس وطول النهار .

ومع وضوح ما بخطابهم من التلفيق لدى والدى ، كتب جوابا على هذا لا أزال أذكر خاتمته المؤثرة البليغة « والسلام عليهم ، لا عليك ، أجمعين » !

وقد كانوا يظنون أنه لن يتأخر عن الحضور بنفسه لطنطا

عقب وصول خطابهم . اجتنبنى زميلى أو ولي السابق ، واتخذ قريبا له قائداً بدلا منى ، من بعض المجاورين المستجدين ، واستمرت إهانته إياى ، حتى هدد أصحاب المنزل بالخروج منه إن لم أتركه أنا ، فرضوا بخروجه وتمسكوا ببقائى عندهم ، لما شاهدوا من ظلمى ولما علموا من اضطهادى ، فسكن خارج منزلهم مع قرابتهم القريبة له ، وعندئذ بدأت أشعر بالحياة الاستقلالية .

عتب أبوه على أهل المنزل لتلك القرابة ، ولكنهم لم يعتبوه تمسكا بالحق ، ولأنهم رأوا أن لا خير فى قريب ظالم يحول بينهم وبين منفعتهم بدون أن يستفيدوا من ورائه شيئا ، غير التحكم فى رقاب الناس !

لم يكن بد من أن يخاطبنى أبى فيما شكوا منه ، ولم تحوجنى عاطفة الوالدين إلى أن أرد اتهامهم إياى بالتفريط فى الدرس ، بالحجة والكلام ، وإن كنت غير قادر على ذلك ، بل كان الواقع والوقائع ، وكانت الاختبارات التى تعقد لنا مجتمعين ، وبحضور المرحوم الشيخ الرخاوى — خير برهان على أنهم ، سامحهم الله ، كانوا فى حكمهم غير منصفين !

دراسة صيفية

رحماك يارب ! فى الكتاب ينصرف الأولاد عصراً ، ويستبقينى الفقيه حتى المغرب . وفى الجامع يسامح الطلبة صيفا ، ولكن لابد من أن أقضى هذه العطلة فى دراسة صيفيه .

هورين هى القرية المضاف إليها أو المشتق منها اسم قريتنا « كفر هورين » مسقط رأسى ! بينهما نحو ميل ، كتب الله علىَّ أن أقطعه يومياً ذهابا وإيابا فى صيف سنة ١٩٠٠ مدة شهرين ونصف شهر ، مع ذلك الزميل الثالث الصغير ، الذى اختاره والدى للائتناس به فى الطريق ، وخدمة له ، لصداقة ، كانت ، بين والدَينا رحمهما الله تعالى .

رغب والدى فى تحسين خطى الكُتابى ، الذى ظل يصفه صادقا بقوله « إنه كسلاسل الزفت » تحريفاً للمقولة « كسلاسل الذهب » فبعث بى إلى مكتب المرحوم الشيخ « أحمد خضير » بهورين ؛ وكان من المتنورين ، حسن الخط ، يعرف طرفا من الحساب والإملاء . كان مكتبه هذا رمزاً للتعليم الحديث ، يفوق سائر الكتاتيب ، التى ما كان أحد من فقهائها يعرف شيئاً من المواد الحديثة التى أدخلت بعدئذ فيها .

كان المكتب يشغل حجرة بدار خضير ، فى داخل القرية ، ويجلس التلاميذ فيه على مقاعد من صناديق « الجاز » الفارغة ، وبه سبورة صغيرة يكتب عليها بالطباشير ، والكراسات فيه من فئة الفلس والفلسين ، والمداد صناعى حديث ، والأقلام من القصب الفارسى المعروف بالبسط ، وهذا كان منتهى الرقى فى هذه المكاتب . زرته بعد سنتين من هذه الرحلة ، فى الوقت الذى تسرب فيه الإصلاح إلى كثير من الكتاتيب فى القرى ، فوجدته فى بناء مستقل خارج القرية على حافة إحدى البركتين هناك وقد اتسع وزاد عدد تلاميذه ، وأعد به مقاعد خاصة .

تلقينا فيه شيئا من دروس الإملاء والخط والحساب ، وخبرنا طرق التعليم الحديثة . وانتهت الرحلة والصيف ، فتحسن خطى قليلا ، ولكن ذلك لم يعفنى من توبيخ والدى كلما نظر فى كتابة لى ، وكأن حرص والدى على تحسين خطى ، كان إرهاصا لما حدث بعد تسع سنوات (١٩٠٩م) عند دخولى دار العلوم كما سترى .

زواج

ما للجامع الأحمدى والزواج ؟ وما علاقة تاريخ التعليم به ؟ مهلا ! ألم يكن الزواج ، قديماً وحديثاً ، مانعاً من طلب العلم ؟ أو على الأقل عائقا عن تحصيله ؟ ! كيف يتزوج الطالب ويترك زوجه فى قريته ، ثم يغيب عنها شهراً أو عدة شهور ؟ ! إنه كان مرغماً على أن يتزوج وعلى أن يغيب ، وعلى أن يسافر . فلم تكن له إرادة مستقلة ، بل كانت إرادته من إرادة والده ، الذى لا مرد لحكمه ! وما دامت هناك إرادة ، فالزواج يساعد فى طلب العلم .

جلسات حول المائدة ، بين المغرب والعشاء فى أوقات الصيف طبعاً ، يعرض فيها الوالدان أسماء فتيات تصلح للزواج ، على ابنهما الصغير ، ويُذكر اسمُ واحدة منهن ، فيرد هذا الصبي من فوره — على غير عادة ، وبمنتهى الجرأة — قائلا : إنها خنفاء ! والأخنف فى عرف الفلاحين أو العوام ، من زادت عنده درجة الغنة ، ولو أن الخفيف منها يعتبر الآن ضربا من الجمال . طرب الوالدان لهذا الجواب ، الذى انتزعته الصدفة من بين شفتى ابنهما الصامت ، بل ملتزم الصمت عند الأسئلة الهامة أو المحرجة !

ولقد ذاع فى المنزل أن ابنة خالته تصلح زوجة ، وكانت

تتردد على خالتها فتجرى أحاديث ، وتصير وقائع تاريخية، لا تزال تذكرها الأسرة .

ولكن كيف يدرى هذا الفتى ماذا تم ؟ إنه لا يدرك معنى الزوجية ، ولا يعلم حقيقتها . بل إنه فى عصر يوم من الإجازة إجازة عيد الأضحى ، عقب عودته من طنطا ، دُعى للزواج ! ! قادوه إلى منزل صهره ، فوجد هناك جماعة فى المندرة أو المنظرة جلس معهم ، وتم عقد الزواج ، وبعد المغرب رأى العروس تزف إلى دارهم ، فطُلب للدخول عليها ، وكانت ليلة تاريخية صبيانية ، لا يزال بعد أربعين سنة يذكر ما كان فيها من قول وفعل وحديث وكلام .

وفى صبيحة اليوم التالى أو « الصباحية » جلس يكتب وثيقة عقد زواجه بدلا من والده المأذون ، فسجل تاريخها كما يأتى :

الأحد ٣ من ذى الحجة ١٣١٨ هـ الموافق ٢٤ من مارث ١٩٠١ م

ليموت شهيدا

انتشر الوباء فى صيف سنة ما . فعطل وجوده العمل بالجامع عدة أشهر . وقد شغلنى أبى فيها كعادته . بزراعة فدان واحد من الذرة الشامية ، سمدته بكل مافى الزريبة من سماد ، وخللته خلا واسعا ، جعل ذلك غلته آخر العام مضرب الأمثال فى القرية . إذ كانت ضعف غلة فدانين ونصف كان يزرعها ثلاثة من أقوياء الزراع الفلاحين المحترفين . وعلى اثر تكليف كلفته فى المديرية أصابتنى عين من حسود مشهور ، أو لإهمال فى النوم بطنطا أصبت بمرض استمر أشهرا ، ولست أعرف بالتحقيق كنهه ، غير أنى أذكر أن علاجه كان يمنعنى من الطعام إلا اللبن المغلى والخبز العادم (الذى لاملح فيه) .

مضت أشهر العطلة الوبائية ، ولم يبق من جسمى إلا عظام كساها المرض جلداً رقيقاً حساسا ، تؤلمه اللمسة ، ويؤذيه المس . كان طعامى الخبز بلا إدام ، واللبن منزوعة رغوته وقشدته ؛ فهل أبقى فى القرية ، والجامع بدأ يشتغل ؟! يجب أن أسافر إلى طنطا!

— كيف يسافر وهو بهذه الحالة ، وعلى هذا الضعف ؟

— ليموت هناك شهيداً ، فى طلب العلم ، مادام قد قدر له الموت!

حملت إلى طنطا . وقد خلا زادى حتى من الجبن ، واقتصر على لقيمات من خبز القمح الخاص الملدن الخالى من الملح . كنت أثردها فى مرق الفول النابت . واستمرت الحال كذلك شهرا أو نحوه .

فرغ الخبز فطلبت غيره . فبعثوا إلىّ « بزوادة » أخرى حملها إلىّ مزارعنا المحبوب . فما إن وصل إلى البيت وأسلمنى « الخرج » لأفرغ مافيه حتى عثرت على رغيفين من دقيق الذرة كانا كمشطور (ساندوتش) قد حشى بينهما قطعة من الجبن الأصفر العتيق الذى لا يقل عمره عن عشر سنوات .

وافرحتاه ! طعام ماذقته شهورا ، وأحب شىء إلى الإنسان مامنعا ! التهمت هذين الرغيفين بما فيهما . وأسرعت إلى المزارع فناولته نصف قرش ليشترى بنصفه رغيفا وبالنصف الآخر حلوى طحينيه ، متضرعا إليه ألا يخبر والدى بما أكلت ، لخروجه على الطعام المرسوم Régime إلى المحرم على . كان من أوضح أعراض المرض أن أتردد على بيت الخلاء مرارا فى الساعة ، ولكن ما كاد هذان الرغيفان يصلان إلى جوفى حتى نسيت الترداد إلى بيت الخلاء نحو ٤٨ ساعة ، عادت بعدها علائم الصحة تسرى إلى جسمى رويدا رويدا ، وسبحان من يحيى العظام وهى رميم .